صلة الخلق والعمران والتاريخ والمجتمع والنهضة وإعادة الإعمار

أ.د. نجاح محمد*

الملخص

بيَّن البحث أنّ الهدف الجميل من الخلق الإلهي للإنسان العاقل، آدم بلغة الدين، هو العمران المتمثل في فعل إعمار الأرض، من خلال تكوين مجتمع المحبة والمساواة والعدل والنظام والحضارة الإنسانية. ويتحدث عن الحركة التاريخية لظاهرة التحوّل في مسيرة البشر بعد الخطيئة وظهور الفساد والدمار وبروز أهمية فعل إعادة الإعمار في بناء مؤسسات المجتمع المادية والروحية، وعن اندماج حركة تطور المجتمع التاريخية في حركة العمران.

ووضَّح البحث جدلية هذه الحركة لتتكوّن حركة التغيّر والتطور والتجدّد المستمرة للمجتمع، ويُبْرز وجود الكمّ الواسع من ممارسات "إعادة الإعمار"، السائدة اليوم في وطننا السوري الغالي، كتصدٍّ لتآمر عناصر الإرهاب التكفيرية وجرائمها. وبيَّن أنّ السوريين، مع الآلام والمرارات القاسية الكثيرة، إلّا أنهم لم ينتظروا، بل باشروا فورًا عملية "إعادة الإعمار" سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا. وفعل إعادة الإعمار هو فعل الإعمار نفسه، ولكن بمعطيات وسمات جديدة هي مزيج من معطيات التراث والمعاصرة في جدلية علاقتهما في كلّ مرحلة تاريخية، أي في تبادلهما لفعلي التأثر والتأثير. وكان موضوع الخاتمة الأنا والآخر ومخاطر النظرة المعيارية الذاتوية، وضرورة إعادة الإعمار في كل ميدان ولاسيَّما وخاصة مجال العقل والإنسان.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

The Relation between Creation, Construction, History, Society, Renaissance and Reconstruction

Pr. Dr. Najah Mohammad**

Resume

This research shows that the noble goal of the divine creation of the rational human being (the homo-sapiens) - who is Adam in the holy scripts - is the construction represented in beautifying the Earth, through the formation of a society that contains love, equality, justice, order and the human civilization. The paper discusses the historical process of the phenomena of the transformation of humanity after the "sin" that led to the appearance of corruption and destruction, and then, the prominence of the importance of reconstruction in building the physical and spiritual institutions of the whole society, and also about the fusion of the historical development of society in the construction trends.

This research illustrates the dialectic in this trend as change and development continue within ongoing renewal of the society, and highlights the existence of the enormous reconstruction practices, happening in Syria, in resistance to the conspiracy and the crimes committed by the Takfiri terrorism. Despite the suffering and hardships faced by Syrians during this war, they did not waste a minute, but they immediately started the reconstruction process

** Department of History, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University

politically, economically, socially and culturally. Reconstruction is the very act of construction but with new data and features, which are a combination of the heritage and novelty and the dialectics between them both in each historical stage.

The conclusion focuses on the "ego" and the "other" and the danger of the self-oriented view, and on the necessity of reconstructing each part of the society and each domain, especially reconstructing the human being (both in mind and soul).

أولًا- الخلق والإعمار وإعادة الإعمار: بداية التاريخ والهدف والماهية والحركة:

ببداية قصة الخلق والتاريخ البشري والإعمار الجميلة جدًا أبدأ. قال تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"[1]، لقد خلق رب العالمين الإنسان العاقل، آدم، وبرمج طاقته ونظامه العقلي المعرفي- القيمي ليكونا في غاية التميّز والكمال بحيث يكون جديرًا بأن يصبح "خليفته" على كوكب الأرض الجميل، "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة"[2]. والهدف هو إعمار هذا الكوكب: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"[3]، أي أسكنكم وجعلكم عمّارها، كي تقوموا بالعمران، بالفعل الجميل النافع لخيرها وخيركم، ولتكون "العمارة هي اتحاد مع الأرض"[4].

هذا أمر لا خلاف عليه: إنّ القصد من وجودنا على كوكب الأرض كان، بالتأكيد، هذا الاتحاد وهذا العمران، الذي هو حركة فعل الإعمار ونتاجه وإعادة الإعمار الواحد بكلّ جماله ونفعه في كلّ مجال، والذي هدفه هو تكوين مجتمع المحبة والمساواة والعدل والنظام والحضارة الإنسانية، بإنجاز المعطيات العمرانية لهذه الحضارة، على كلّ صعيد سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، قيمًا إنسانية راقية وسلطة وإنتاجًا، زراعة وصناعة وتجارة ونقلًا ونقدًا وثقافةً، علومًا وأدبًا وفنًّا ومنه فن المسرح والموسيقا والرسم والنحت والعمارة إلخ... وهذا طبيعي إذ كنا مبرمجين بدايةً بجانب وحيد هو جانب الخير فقط من أجل إنجاز تكوين هذا المجتمع وعمرانه، فما ماهية هذا العمران؟

العمران لغةً[5] هو: "ما يُعَمَّرُ به البلد ويُحَسَّن حالُه بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة نُجِح الأعمال والتمدُّن"، و"العدالة أساس العمران"، وهو "حضارة" و"حركة الأَهالي وأعمال وتشييد وتمدّن"، وهو "علم الاستيطان البشريّ ويشمل تخطيط مدينة أو مجتمع أو تصميمها". و"علم العمران هو علم الاجتماع". ولنتذكّر أنّ معنى كلّ من التمدن والحضارة متضمّن لجميع قيم الخير ومنها قيمة الإتقان التي كانت قيمةً دينية

---

[1]- القرآن الكريم: سورة التين، الآية: 4.

[2]- المصدر نفسه: سورة البقرة، الآية: 30.

[3]- المصدر نفسه: سورة هود، الآية: 61.

[4]- البني، عدنان: أبولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ القديم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990، ص: 77.

[5]- انظر في قواميس اللغة العربية: ومنها قاموس محيط المحيط، وانظر معجم "المعاني الجامع".

عليا أيضًا، يقول الرسول الكريم محمد صلى اللهُ عليه وسلم: "إنّ الله تعالى يحبّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"[6].

في بداية العمران، مع الخلق وبداية التاريخ البشري، تحرّك الإنسان بعقله وبطاقته التي كانت خيّرة بكلّيتها قبل وقوعه في الخطيئة، فارتبطت حياته كلّها ومنها العبادة بالعمل الخيّر الصالح المتقن، وليعبّر عن ذلك بروز المضمون البناء الإيجابي للعمل في معنى فعل "عَبَدَ" في اللغة السريانية العربية[7]، فهو: "عمل، صنع، فَعَلَ، خلق، برأ، صلح، نفع، أقام، عمّر، ساعد، ملك، احتفل إلخ..."[8] أمَّا بعد هذه الخطيئة، التي رسمها إبليس موسْوِسًا للإنسان بالشرّ الذي أهبطه إلى الحياة الدنيا، والتي فرضت تحوّله بعدها إلى صراعه مع الجانب الشيطاني الشرير الجديد فيه، جانب الفساد والدمار، فقد ظهر معنى جديد لفعل "عَبَدَ" هو "تَخَبَّطَه الشيطان أي استعبده"[9]، وليكون فعل "عبد" بالفصحى: طاع وخضع وذلّ وخدم... والعبد هو الإنسان حرًا كان أو رقيقًا"[10]. إنّ طبيعة التطور اللغوي العربي لأسمى كلمة هي "عَبَدَ " تعكس قصة انحدار الإنسان بعد هبوطه من جنة عمران قيم الخير الأحادية إلى ازدواجية قيم الخير والشرّ في الحياة الدنيا ولتبدأ إشكالية الحياة كلّها.

من المنطقي أن يصبح هذا الإنسان إشكاليًا في حدّ ذاته، فبعد أن كان خيْرًا كلّه أصبح رهن الاختيار بين صوتيْن، صوت الخيْر وصوت الشر، ورهن ما يعبد حقيقة لا زيفًا، فكرًا وقولًا وسلوكًا، فإمَّا أن يكون عبدًا لله حرًا في جماعة الخير والإعمار المؤمنين بالله الواحد الأحد، أو عبدًا رقيقًا في جماعة من "تخبطهم الشيطان" بالشر والتدمير وغيره من مظاهر الفساد الذي حرّمه الله تعالى وحذّر منه: "ولا تفسدوا في الأرض بعد

---

[6]– رواه الطبراني، والبيهقي.

[7]– بيّنت الدراسات التاريخية المعنية عروبة السريان ولغتهم، وتأكيدًا فإنّ بطريرك السريان الأرثوذكس المعروف زكا عيواص، متحدثًا باسم السريان، في دراسته" الإسلام والمسيحية: تكامل تاريخي في بناء الحضارة العربية"، يقول: " نحن شعب عربي واحد، دم العروبة يجري في عروقنا، فلنوطد الوحدة الوطنية في الوطن العربي كله، لنرفع راية العروبة عاليًا"؛ انظر حديثه في جريدة النهار: بيروت، 2005.

[8]– انظر: أوجين منّا، يعقوب: قاموس كلداني–عربي، أعاد طبعه مع ملحق جديد روفائيل بيداويد، منشورات مركز بابل، بيروت، 1975.

[9]– المصدر نفسه.

[10]– انظر: قاموس محيط المحيط.

إصلاحها"[11]، " والله لا يحب الفساد"[12]، "ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين"[13]. للتصدّي والحدّ من فساد الهدم والتدمير والانحدار أتت رسالات الهداية السماوية، رسالات الأنبياء عليهم السلام، موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، رسالات قيم الحضارة، قيم الوصايا والإنجيل والقرآن الكريم، قيم الإعمار والعدالة والعمل الصالح والسلام والمحبة، فـ "الله محبة"[14] و "لن تؤمنوا حتى تحابوا"[15]، و"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[16]من إعمار وغيره. والإيمان المقصود هنا بالطبع هو الإيمان الصادق بالله وقيمه الخيّرة، وهو المطلوب المبتغى عند الأديان جميعها، ووحده الله قادر على تحديد وجوده وصحة مضمونه عند البشر، لأنّه وحده علّام الغيوب ووحده يعلم ما تخفي النفوس، ومن هنا لم يفوَّض أيّ من البشر بالحكم على إيمان أحد، حتى الأنبياء أنفسهم الذين هم مبشرون ومنذرون. وبطبيعة عقائد البشر وأحوالهم ومطامعهم ومطامحهم الحاضرة والمستقبلية وتحدّيهم للطبيعة وكوارثها، ووعيهم لأحوال العمران وطبيعته وضرورته، وغرقهم في خضمّ المصالح المختلفة والصراعات والحروب، كان لا بدّ أن يبرز لديهم باستمرار فعلا الإعمار وإعادة الإعمار، ولاسيَّما إثر كلّ حرب تخريبية مدمرة، أهلية أو خارجية. ولينتج عن هذه الاستمرارية اندماج حركة تطور المجتمع التاريخية في حركة العمران، كإعمار وإعادة إعمار، وكهدم وتدمير.

وهكذا تشكّلت وحدة حركة المجالات المحورية الثلاثة، الاجتماع والعمران والتاريخ، مما يفسّر وحدة علومها أيضًا. ونرى ضرورة التذكير هنا بأنّ المؤرخ العربي المعروف ابن خلدون هو أول من وضع أصول علمي التاريخ والاجتماع؛ وأول من ربطهما بعلم العمران منذ القرن الرابع عشر ميلادي. كان يربط دومًا بين ضرورة "الاجتماع الإنساني" و"عمران العالم" لأنه بالبشر يكون هذا العمران، ولأن هناك، وفق قوله، "أصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله

---

[11]– القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية: 56.

[12]– المصدر نفسه: سورة البقرة، الآية: 205.

[13]– المصدر نفسه: سورة المائدة، الآية: 64.

[14]– الكتاب المقدس: رسالة القديس يوحنا الأولى، الفصل الرابع: 17/9.

[15]– من حديث شريف، رواه مسلم عن أبي هريرة.

[16]– حديث شريف عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، أخرجه البخاري ومسلم، ووافقهما الترمذي والنسائي.

البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"[17]، الذي هو "ما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم"[18]. وكان ابن خلدون يبيّن "حقيقة التأريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس"[19].

ونجدها فرصة في قوله هذا لنؤكّد حقيقة مهمة، وهي أنّ محور أحوال العمران والبشر، على الأرض عمومًا، هو الصراع بين أصحاب التوحش الشرير الهمجي وبين أصحاب التأنس الخيّر الحضاري الذي نرى فيه الصراع الحقيقي للتاريخ البشري على مرّ العصور، ومظاهر الصراع الأخرى كلّها، الدينية والطائفية والعنصرية والعرقية وغيرها، ليست سوى أقنعة ومظاهر له تحركها قواه السياسية–الاقتصادية الفاعلة في هذا العالم والمستغلّة أو الراعية لمعطيات فعليْ الإعمار وإعادة الإعمار كلّها. وفعل إعادة الإعمار، كما ذكرنا سابقًا، هو فعل الإعمار نفسه ولكن بمعطيات وسمات جديدة هي مزيج من معطيات التراث والمعاصرة في جدلية علاقتهما في كلّ مرحلة تاريخية، أي في تبادلهما لفعلي التأثر والتأثير، التي هي بعض من جدلية الصلة بين التاريخ وفعل إعادة الإعمار عمومًا.

ثانيًا– جدلية حركة التاريخ وإعادة الإعمار:

أصبح من المعروف، في الأوساط المعنية، وجوب التمييز بين التاريخ وبين التأْريخ، فالتاريخ هو حركة التغيّر والتطور من القديم إلى الجديد في كلّ جزء من الزمن في أبعاده الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، وفي نسبيته بحيث يكون كلّ جزء من الزمن، في آن واحد، هو حاضر لما يزامنه، وهو ماضٍ لما يأتي بعده، ومستقبل لما يأتي قبله. وحركة التاريخ، الفاعلة باستمرار في صنع المتغير الجديد على كلّ صعيد، هي حركة جدلية تكون وفق ثلاثة قوانين: الأول قانون صراع الأضداد، والثاني قانون التراكم الكمي يؤدي إلى تحول كيفي، والثالث قانون النفي ونفي النفي.

---

[17]– بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي، بيروت، دون تاريخ، ص: 35.

[18]– المصدر نفسه: ص: 43.

[19]– المصدر نفسه: ص: 35.

ومن المفيد هنا بيان أنّ هذا الفكر الجدلي–المادي في حركة التاريخ، الذي برز مع الماركسية بشكل خاص، كان بتأثير "الفكر الحرّ النشط المأخوذ عن العرب"[20]، أي إنّه ليس أجنبيًا كما قد يظن بعضهم، وهو بعض مما أخذه الغرب والعالم عمومًا من العرب في العصور القديمة والوسطى والحديثة حتى قيام الثورة الصناعية في بريطانيا وبقية أوروبا في القرن الثامن عشر. ما أُخِذ كان يمثّل جميع الأسس والمعطيات الأبرز للحضارة الإنسانية، كما يؤكد معظم

الباحثين الموضوعيين المعنيين[21]. أمَّا التأريخ فهو تسجيل التاريخ وتدوينه، آثارًا وكتابةً، من حيث إنَّ كلّ نصّ أو أثر يخصّ الإنسان منذ وجد وأينما كان، أيًا كانت طبيعته، مكتوبًا كان أم غير مكتوب، مدنيًا أو دينيًا، هو وثيقة يستفاد منها في التأريخ، بعد الدراسة المقارنة بالطبع مع الوثائق الأخرى جميعها، وعلى ضوء العلوم المعنية كلّها، ومن خلال التأْريخ نتعرف العمران.

ومن الطبيعي أن تكون معطيات التطور، معطيات العمران، في مجالاته كلّها المادية الروحية، هي نتاج مفرزات حركته التاريخية الجدلية المتصلة المتواصلة والمستمرة من القديم إلى الجديد، إذ إنَّ كلّ جديد ينطلق من القديم، يتفاعل معه، يفرض هيمنته، ليظهر جديد آخر ينفيه محولًا إياه إلى قديم، وهكذا في "سلسلة من عمليات النفي تتعاقب إحداها بعد الأخرى"[22] لتتكوّن حركة التغيّر والتطور المستمرة للمجتمع، حركة التاريخ، وحركة التجديد، وحركة العمران كإعمار وكإعادة إعمار.

---

[20]– انظر: التيزيني، طيب: من التراث إلى الثورة، ط3، دار دمشق، 1979، ص: 988–990.

[21]– راجع من هؤلاء ممن نكنّ لهم تقديرنا العالي، المستشرقين الفرنسيين فيكتور بيرار (Berard) وبيير روسي (Rossi)، وغوستاف لوبون (Le bon)، وروجيه غارودي (Garaudy)، والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه (Hunnke)، والمستشرق البريطاني مونتغمري واط (Watt) وغيرهم. ودون أن ننسى أندريه بارو (Parrot) المتخصص في آثار ماري ومدير متحف اللوفر سابقًا، والقائل: "إن على كلّ إنسان متمدن أن يقول: إن لي وطنين، وطني الذي أعيش فيه وسوريا". وانظر عند العرب المؤلفات المهمة المعنية لعفيف بهنسي وأحمد داوود وعلي فهمي خشيم وشاكر مصطفى وغيرهم.

[22]– مجموعة باحثين: موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة توفيق إبراهيم سلوم، ط3، دار الجماهير الشعبية، دمشق، 1980، ص: 659–660.

وعليه، فإنّ الصلة بين حركة تطور المجتمع والعمران والتاريخ على الأرض هي محورية وصلة وجود، إذْ لا وجود للعمران، أي للإعمار وإعادة الإعمار، خارج التاريخ والمجتمع البشري، ولا وجود لهما دونه. وإنّ هذه الحركة، إذ هي شاملة، شكلًا ومضمونًا، لجميع مكوّنات ومعطيات مجالات الميادين الحياتية كلّها البشرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإنّها هي صانعة معطيات حضارة، أو عمران، أو نهضة التاريخ البشري ومنه السوري.

وبناءً عليه، من الممكن أن نفهم وجود هذا الكم الواسع من المعاني الغنية لمصطلح "إعادة الإعمار"، السائد اليوم في وطننا السوري الغالي، منذ أن حلّت فيه عناصر الإرهاب التكفيرية المرتزقة، المصنوعة من تحالف قوى الاستعمار الغربي والصهيونية والرجعية العربية والإقليمية والمحلية، بزعامته الأميركية–الصهيونية، لتقترف مهام جرائمها المدروسة والمرسومة في تدمير سوريا في مؤسسات بنيتها التحتية والفوقية جميعها، تراثًا وآثارًا وحداثةً، وفي محاولة تجزئتها لتسهل السيطرة على ثرواتها ولاسيَّما النفطية والغازية الضخمة المكتشفة حديثًا.

ما قامت به هذه العناصر من تدمير وتفرقة وتجزئة في سوريا كان جزءًا من مهامها في تدمير الوطن العربي وتفرقته وتجزئته كلِّه، بسُبُلٍ وصيغ مختلفة لصالح الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة. والمثير للتساؤلات كان ما رافق ذلك من موقف غريب ومشين لجامعة الدول العربية، ولاسيَّما ضدّ ليبيا وسوريا التي أقرّ مجلسها تعليق عضويتها فيها، ضاربًا بميثاقها ومبادئها عرض الحائط. ولتسهم هذه الجامعة بعد ذلك في حصارها الاقتصادي والسياسي وفي كلّ تآمر ضدّها ومنه تبني المنظمات الإرهابية ودعمها كبديل لنظامها المدني الوطني المتطور، النظام الذي أتى بانتخابات وطنية، وصنع جيشًا وطنيًا قويًا، وعزز اقتصاد سوريا لتبقى الدولة القوية التي لا ديون عليها، وعمم التعليم المجاني تقريبًا في مراحله كلّها ومنها الجامعية، وأدخل الكهرباء إلى كلّ بيت، وأوجد الأمن الغذائي والصحّي إلخ...إنّه النظام صاحب القرار المستقل الذي رفض الضغوط الاستعمارية والصهيونية والرجعية جميعها، وأصرّ على دعم قوى المقاومة الوطنية النظيفة في فلسطين ولبنان والعراق. وإنّ هذه القوى، وعلى رأسها حزب الله، لم تترك سوريا وحيدة، أولًا لأن الإرهاب عدوّ مشترك، وثانيًا لأنّها أصيلة لم تنسَ ما كانت

تقدمه لدعمها ولدعم كلمة الحقّ. ولم تكن هذه القوى بعيدة قطُّ عن عملية إعادة الإعمار عند السوريين.

برز هذا المصطلح، أي "إعادة الإعمار"، في كثير من الميادين في سوريا وفي المجالَيْن النظري والعملي معًا تهيئة للفعل المستقبلي الأكبر وللتحوّل النهضوي القادم، فتوهجت معانيه وانطلقت في كلّ فعل معمّر نافع، ومنها: إعادة التنظيم، وإعادة البناء والإنشاء، وإعادة الإسكان والتعمير، والإحْياء، والتَجْدِيد، والتصحيح لإعادة الصحيح، وإعادة البناء العقلاني للإنسان والمجتمع في كلّ مجال بالطبع إلخ... وليكون الهدف الأسمى دومًا هو نهضة سوريا الغالية.

ثالثًا- إعادة الإعمار والنهضة في سوريا اليوم:

إنّ عملية "إعادة الإعمار" بامتدادها الواسع سطحًا وعمقًا بحيث تشمل جوانب الإنسان والمجتمع جميعها، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا، تهدف إلى القيام بنهضة كلّية في هذه الجوانب وصولًا إلى سوريا الفُضلى قوةً وأمنًا وردعًا وازدهارًا وتأثيرًا. والأمر الأبرز الذي أحرص على تأكيده هنا هو أن السوريين لم ينتظروا نهاية الحرب ليباشروا العمل في هذه العملية، فما أجّلوه منها هو المشاريع والخطط الكبرى التي هي بحاجة للاستقرار، في حين باشروا فيها منذ بداية التآمر الإرهابي عام 2011، وكردّ فعل لقيام منظماته التكفيرية المرتزقة باقتراف ممارسات الفساد والقتل والهدم والتدمير والتفجير والنهب وغيرها كلّها ومنها سرقة معامل حلب. السوريون الوطنيون لم ينتظروا ولم يتوقفوا عن إعادة الإعمار والبناء على قدر استطاعتهم في هذه الظروف الصعبة.

هذا أمر مثير للانتباه والإعجاب، وجميل أن يؤكّده السيد الرئيس بشار الأسد في كثير من أحاديثه ومنها حديثه الذي أدلى به لقناة "تي بي أس" اليابانية في كانون الثاني عام 2017، إذ قال[23]: "نحن لم ننتظر، ولن ننتظر إلى أن تنتهي الأزمة... والشعب السوري مصمم على إعادة بناء بلده. نحن بنينا سوريا... ومن ثمَّ فنحن نمتلك القدرة على إعادة بناء سوريا... ونحن لسنا قلقين حيال ذلك، وما يقلقنا هو كيف نتمكن من إعادة بناء عقول الناس الذين وقعوا تحت سيطرة "داعش" و"النصرة" عدَّة سنوات وقد لوثت

[23]- انظر نصّ الحديث الذي نشرته وكالة "سانا" الرسمية السورية للأنباء في 20 كانون الثاني، 2017.

عقولهم... كيف نستطيع إعادة بناء تلك العقول أو إعادة تأهيلها، هذا شاغلنا الأكبر بعد الأزمة".

المرارات قاسية وكثيرة، لكّن الملفت دومًا أنّ السوريين الوطنيين المتميزين وعوا الحلّ تمامًا: إنّه إعادة الإعمار على كلّ صعيد وفي كلّ مجال. هم متألمون جدًا لكنهم متفائلون، إنّهم يعيشون التقدم المستمر لجيشنا الوطني الذي نعيش تضحياته وانتصاراته التي لا تنسى ضدّ منظمات الإرهاب. ويطمئنون لعودة الأمان شيئًا فشيئًا إلى الوطن، وتبرز فعاليات عملية "إعادة الإعمار" أكثر فأكثر في خطط ومشاريع ومخططات وملفات كثيرة ومتشابكة على كلّ صعيد، سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي.

خارجيًا وقبل كلّ شيء برز الاتفاق على قرار السوريين الوطنيين الجامع باستبعاد القوى الداعمة للإرهاب التي أسهمت في دمار سوريا، وخاصة تركيا والمملكة العربية السعودية وقطر، وبتأكيد واجب القيام بالشراكة الاستراتيجية لقوى حلفاء سوريا ولاسيَّما روسيا وإيران والصين في إعادة الإعمار فيها، وفق ما كان يؤكّد السيّد الرئيس الأسد في أحاديثه ومقابلاته الكثيرة[24]، وكذلك السيّد رئيس مجلس الوزراء عماد خميس الذي شدد، في 2017/1/19، على أن "أي استثمار يأتي من الخارج سيكون مكملًا وشريكًا...والدول الصديقة التي وقفت إلى جانب سوريا هي من سيشارك في عملية إعادة الإعمار"[25]، طبعًا هذه الدول هي روسيا وإيران والصين.

وبرز داخليًا على الصعيد السياسي لعملية إعادة الإعمار التركيز على أن هذه العملية شاملة متكاملة، كما ذكر السيد رئيس الوزراء وائل الحلقي[26]، في 2014/11/24، مؤكّدًا أنّها "تأتي في إطار مشروع تنموي وطني متكامل، وشامل، وليس إعادة ما دمرته الحرب فحسب، بل تشمل إعادة بناء روحي ثقافي، واجتماعي، وسياسي، واقتصادي"، ويضيف أنّ هناك "التزامًا من الحكومة بالتحضير للمرحلة القادمة. واستجابة منها لمتطلبات الأزمة شكلت لجنة مركزية لإعادة الإعمار وارتبطت

[24]– انظر على سبيل المثال حديثه الأخير إلى قناة "تي بي أس" اليابانية...، المعطيات السابقة نفسها.

[25]– راجع كلمته التي نشرتها وكالة سانا في 2017/1/19.

[26]– راجع كلمته التي ألقاها على مدرج جامعة دمشق في المؤتمر الذي أقامته الهيئة العليا للبحث العلمي بعنوان "دور المؤسسات العلمية والبحثية في إعادة الإعمار"، بتاريخ 2014/11/24.

بها لجان فرعية في المحافظات تشرف على تنفيذ خطط إسعافية سريعة بهدف تأهيل البنى التحتية والمرافق المتضررة في كثير من المناطق التي أعيد إليها الأمن والاستقرار بما يكفل إعادة الأسر المتضررة والمهجرة إلى أماكن استقرارها فضلًا عن صرف التعويضات المستحقة للمواطنين الذين تضررت منازلهم جزئيًا أو كليًا". وكان تشُكيل لجان إعادة الإعمار السنوية بطيفها الواسع الممتد إلى الميادين جميعها قد بدأ منذ عام 2012 واستمرّ حتى اليوم.

قامت هذه اللجان بوضع الخطط والبرامج على المستويات جميعها والقطاعات المشكلة للمجتمع السوري خلال الأزمة ولما هو بعدها. وكان من الطبيعي أن تتضمّن أغراض الإعمار فيها التصدّي لمظاهر الفساد في كلّ شأن ومجال، ومنها ما أفرزه طمع الفاسدين من غلاء غير معقول للأسعار ومن قيم مادية استهلاكية مخيفة كان التصدّي لها في منتهى الصعوبة. وبرز الحرص على وجود تنسيق وتعاون بين الوزارات والهيئات والشركات الحكومية كلّها مع منظمات المجتمع المدني الأهلية، الأحزاب والنقابات والجمعيات واتحاد غرف الصناعة والتجارة وغرف الزراعة والسياحة، والمناطق الحرة وهيئة الاستثمار، وهيئة دعم الإنتاج المحلي والصادرات واتحاد المصدرين وتنميتهم، وسوق دمشق للأوراق المالية، وهيئة الإشراف على التأمين السورية وشركات التأمين، والبنوك والمؤسسة العربية للإعلان إلخ...

تشكّلت لجان كثيرة عند السوريين الوطنيين، وبرز عندهم موضوع ضرورة استمرار الإعمار العسكري العامل على ضمان لوازم ومتطلبات انتصار الجيش الوطني كلّها في حروبه مع قوى الإرهاب ومنظماته، ومنها الأسلحة والإعداد الجيد، ورعاية شؤون الجرحى والمعوقين، والمتابعة الواجبة والمشرفة لشؤون الشهادة والشهداء. وبرز كذلك موضوع أهمية استمرار الإعمار الأمني للوطن بضمان متطلباته كلّها، وموضوع دراسة التمويل والأدوات لإعادة الإعمار في كلّ مجال ومنه المجال الإداري والعقاري. وبرزت الشركات الإنشائية العامة مثل "الشركة العامة للبناء والتعمير"، و"هيئة التطوير والاستثمار العقاري" إلخ... وتمّ قرار الإفادة من الأطر العلمية والسورية عمومًا ومن دور مؤسسات البحث العلمي، داخل سوريا وفي بلدان الاغتراب، كشريك مؤثر في إعادة الإعمار، من خلال إسهامه في إعطاء الخطط وفي دراسة التجارب الناجحة للدول

الأخرى، وفي كلّ ما يتعلق بتكوين منهجية متكاملة لعملية إعادة الإعمار في سوريا[27]. كما بدأت الحكومة تؤطِّر التشريعات ذات العلاقة بذلك، ولاسيَّما قانون التشاركية والاستثمار والإدارة المحلية وقانون المنظمات غير الحكومية وغيرها.

على الصعيد الاقتصادي النشط جدًا، برزت معطيات إعادة الإعمار التنموي في المجال الزراعي والغذائي والصناعي والتجاري والنقدي، ومنها بعض الخطوات في التصدي لوضع حدّ لانخفاض العملة السورية، وكذلك تشكيل ورشات العمل والنشاطات من مؤسسات رسمية وخاصة وأهلية، للتصدّي لانعكاسات الأزمة السورية منذ بدايتها عام 2011 وبداية الحصار الاقتصادي لسوريا، والعمل على عزلتها دوليًا وعربيًا. هذه الورشات والنشاطات شملت المجالات كلّها في الداخل لترسم كثيرًا في مجال ضمان استثمار وحماية ثرواتنا الوطنية ومنها النفط والغاز والآثار والزيتون والحمضيات وغيرها كثير.

هناك لدى الحكومة إصرار على تشجيع الاستثمار وحمايته، وتوسيع دائرته، وتطوير القطاع العقاري الذي هو وجود أساس في كلّ عمل وإسكان وتنمية وطنية، ولديها إصرار على القيام بمساعي حماية وتشجيع للمنتجات السورية ودعم تصديرها بأشكاله ووسائله كلّها. وامتدت النشاطات إلى تنظيم المعارض السنوية المعنية بإعادة الإعمار تمويلًا وتخطيطًا وتنفيذًا منذ عام 2014. واليوم يحضَّر لحدثيْن مهميْن متزامنيْن هما "معرض دمشق الدولي" في 18 آب في دورته التاسعة والخمسين، و"المؤتمر الاقتصادي الدولي السوري الأول في إعادة الإعمار والاستثمار والتشاركية" في 19 آب 2017.

وعلى الصعيد الاجتماعي لم تتوقف مجموعات وورشات العمل في إعادة إصلاح أو بناء ما هو ضروري للتعليم والصحة وإسكان المهجرين في أبنية إيواء خاصة، وفي العمل على عقد المصالحات الوطنية، وعلى نشر الوعي لانتماء المواطنة وتعميقه وترسيخه فوق الانتماءات كلّها التي يجب الاحترام الكليّ لها، فهي مشروعة ما دامت هي تحترم حقّ الآخر بعيدًا عن أيّ تعصب، وكما يؤكّد الرسول الكريم صلى الله عليه

[27]– انظر: بحوث ونتائج المؤتمر المذكور الذي أقامته الهيئة العليا للبحث العلمي في 2014/11/24، بمشاركة 20 جهة بحثية وعلمية حكومية وخاصة...

وسلم: "ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية"[28]، وطبعًا الحماسة غير التعصب والتعصبية.

والأهم الذي أحب أن أدلّ عليه، لأن له دلالات إيجابية مهمة، هو فعاليات منظمات المجتمع المدني القديمة والجديدة، الوطنية تحديدًا، من التي نشطت ضدّ التآمر الإرهابي على سوريا بكلّ اندفاع ووعي وجدّية، ومنها الحزبية والنقابية والأهلية الخاصة بمجال ما وغيرها، مثل منظمة "بصمة شباب سوريا" التي نشأت بعد الأزمة كمؤسسة أهلية تعزز ثقافة المواطنة، و"تهتم بإيجاد بيئة لشباب سوري واعٍ ومسؤول، يتواصل، يتفوق، يبدع، لخدمة مجتمعه وتنميته "[29].

وعلى الصعيد الثقافي جرى كثير من النشاطات المعنية بالإعمار وإعادة الإعمار، إن كمسرح ومسلسلات وحفلات موسيقية وغنائية وتراثية، أو كندوات ومعارض ومؤتمرات ومباريات ونشاطات نوعية مثل تنظيف وزرع أشجار إلخ... وجرت علاقة التعاون والشراكة بين المؤسسات الأكاديمية الرسمية، وعلى رأسها جامعة دمشق، وبين الجامعات الخاصة ومنظمات المجتمع المدني الأهلية الوطنية ولاسيّما العلمية التي شهدت نشاطًا مشرفًا ملحوظًا في النشاطات والفعاليات جميعها ومنها البحوث والدراسات والخطط والندوات والمؤتمرات.

جرى فيها جميعها تأكيد على ضرورة تطوير البحث العلمي فيما يخصّ عملية إعادة الإعمار، ومنها إنشاء شبكات معرفية وطنية في مختلف المجالات التي تخدم هذه العملية، بما يغني التعارف وتبادل الأفكار والمعلومات بين باحثين ومختصين وخبراء. وعلى أنّ دور المؤسسات التعليمية والبحثية فيها يجب أن يتمثل في الإسهام في صنع الاستراتيجيات والخطط والسياسات وتوسيع الخيارات المتاحة وجعلها أكثر مرونة، والتركيز على الإسهام في التطوير الكمي والمادي، وفي ضمان الدور التربوي والتعليمي والتقني والتثقيفي والتوعوي والإعلامي على مختلف المستويات، وبما يحفظ الهوية والانتماء.

---

[28]- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه أبو داود.

[29]- انظر المواقع الإلكترونية المعنية بمنظمة "بصمة شباب سوريا".

وأخيرًا كان من الملاحظ تطور أداء الإعلام السوري ولاسيّما التلفزيوني، ودوره المشرّف طوال الأزمة، ومنه البرامج الناجحة التي كانت تسهم في إبراز معطيات الصمود السوري الشجاع، حكومة وشعبًا وجيشًا وطنيًا، وكذلك البرامج السياسية والثقافية المهمة في إطار إعادة الإعمار العقلي والنفسي، لرعاية الانتماء والهوية والمواطنة عند السوريين، ولاسيّما فئة الشباب منهم، مثل برنامج "سوريا تتحاور"، وبرنامج "سوريا مسيرة إنسان وحضارة" وغيرهما كثير.

لكن هذا لم يمنع وجود بعض من يثيرون التساؤل والاستغراب، مع الأسف، لقيامهم بتكرار أخطاء معرفية مرفوضة، إذ يوردون معلومات تتضارب مع حقائق التاريخ والآثار عن العمارة العربية السورية التي تنتمي إليها أوابد آثارنا كلّها في عصور الحكم اليوناني والروماني والبيزنطي والأيوبي والمملوكي والعثماني، وهي آثار نعتزّ بها بقوة. وتتمثل هذه الأخطاء التي هي بحاجة إلى إعادة إعمار بمعنى التصحيح لإعادة الصحيح، بتبني معلومات التزوير من قبل الأعداء حول هويتها على أنّها ليست عربية ولا سورية، وإنَّما هي هوية الحكم الذي أقيمت في عهده، علمًا أنّه قد جرى تصحيحها بأيدّ علمية موضوعية، غربية وعربية وسورية، عُرِضَت على التلفزيون السوري نفسه غير مرة، ولم يعد أحد يتكلم بها سوى الغائبين عن الحقائق كلّها أو المتجاهلين لها لأسباب لا تمتّ للبحث العلمي النزية بصلة.

وأرى من الضروري بيان أربعة أمور: الأول أقوم بهذه الفقرة في إطار إسهامي، من خلال مجال عملي واختصاصي في التاريخ، في إعادة الإعمار من باب أحد معانيه المهمة المذكورة وهو معنى التصحيح لإعادة الصحيح، والثاني أنني لا أصحح لأنّها خاصة بالعرب والسوريين، أبدًا كنت سأفعل الأمر نفسه لو كانت خاصة بأي شعب من الشعوب لأنّ الحقيقة التاريخية حقّ لشعوبها وللإنسانية جمعاء، والثالث هو أنني أرفض المضمون العرقي أو العنصري للعروبة الذي أسقطته ثقافتنا العالمية القديمة من منطلق كوننا أصل الإنسان والحضارة، لصالح المضمون الحضاري الإنساني الذي عززته المسيحية بوصفها دينًا للمحبة والسلام، وعززه الإسلام تمامًا ومنه حديث الرسول الكريم محمد صلى اللهُ عليه وسلم الرائد في إسقاط النظرية العرقية منذ القرن السابع الميلادي: " الرب واحد والأب واحد، وليست العربية فيكم من أب وأم، وإنَّما العربية باللسان، فمن

تكلم العربية فهو عربي"[30]. والأمر الرابع هو أنّ من يَصِف هذه الأوابد بأنّها عربية سورية هم الأكاديميون المعنيون أصحاب الاختصاص كما سنرى بعجالة.

يؤكّد الأكاديمي السوري المعروف د. عدنان البنّي، المتخصص بالآثار، في إطار حديثه عن التأثير الشرقي، أي العربي السوري، في فنون روما، نقلًا عن باندينيلي (Bandinelli)، أنّها وصلت "إلى درجة يستحيل معها النظر إلى فن الرومان، بعد ذلك العصر، من زاوية النظر لروما وحدها"[31]. ووفق ما جاء في تاريخ كمبردج كما يذكر البنّي، فـ"إنّ سوريا في مجال العمارة كانت متقدمة على روما، بل كانت بالنسبة إليها النموذج الذي احتذته... وأنّ سوريا تفوقت على روما في عبقريتها المبدعة"[32].

ويؤكّد روسّي، "الأكاديمي الفرنسي المتخصص بتاريخ اليونان، وجود "السمة العربية" لحضارات العالم القديم كلّها لأنّ "الثقافة كانت عربية منذ بداياتها الأصيلة"[33]، ومنها حضارة اليونان التي يبيّن أنها "لم تكن سوى شرفة لبناء العرب في الشرق"[34]، وحضارة روما ومعظم أوابدها الشهيرة التي قام بها المهندس السوري أبولودور الدمشقي، وبحيث كانت المدينة الرومانية "هي نفسها مشربة بالتقاليد العربية"[35]، وكذلك يضيف أنّ "الثقافة العربية هي أم الثقافة الهيلينستية... التي صاغت وشكّلت عقلها وقوانينها"[36]. ويتحدثّ عن "عظمة سرّ العمارة العربية وقوتها" في كنيسة آيا صوفيا في استنبول التي كانت قد بنيت في العهد البيزنطي، وعن أنّ "الفن البيزنطي... هو فن عربي"[37].

---

[30]- رواه أحمد بن حنبل.

[31]- أبولودور، البني: الدمشقي...، ص: 18؛

Bandinelli, B. R: Rome, le centre de jouvoir, Paris, 1969, P: 281.

[32]- أبولودور، البني: الدمشقي...، ص: 18.

[33]- Rossi, P: La cité d'Isis histoire vraie des Arabes, Paris, 1976. ترجمة: فريد جحا. ط2، دار البشائر، دمشق 1996، ص: 142.

[34]- المصدر نفسه، ص: 41.

[35]- المصدر نفسه: ص: 38/ 193.

[36]- المصدر نفسه: ص: 24.

[37]- المصدر نفسه: ص: 242-244.

ومع ذلك فإنّ بعضهم يجهل أو يتجاهل الحقائق التاريخية والعارفين لها جميعهم، الدلالات العلمية الصحيحة لحوامل الحدث التاريخي الأربعة كلّها، البشري والزمني والمكاني والكيفي، ويصرّ على جعل أوابدنا وآثارنا القديمة يونانية أو رومانية أو بيزنطية، وعلى جعل آثارنا العربية–الإسلامية مملوكية أو عثمانية، والصحيح أنها تمّت في العهود المذكورة ليس إلاّ، لكنها سورية وبناها الفنانون والحرفيون السوريون. هذا بعضهم يتجاهل ما تبيّنه الأكاديمية هونكه (Hunke) المتخصصة بالحضارة العربية–الإسلامية، عن تأثير العمارة العربية في العالم كلّه ولاسيَّما في الغرب وبأشكالها كلّها: "السقوف والأقبية والأركان والعمد المستديرة...والقبب والأقواس العالية وشكل المآذن بقاعدتها المربعة يعلوها جزء مثمن الأضلاع يعلوه جزء مستدير، فبنوا على هذا الطراز أغلب أبراج الكنائس"[38]، وتبيّن أنّ هذا الطراز هو الذي سمّاه الغرب بالطراز القوطي الذي عمّ أوروبا أنّه "عربي الأصل تمامًا"[39]. وتؤكّد أنّ الفنّ العربي في العمارة قد ترك بصماته على فنون العالم كلّها بما فيها طراز تيودور في الولايات المتحدة الأميركية الذي "أصبح طراز البناء الشهير للجامعات"[40]. وتؤكّد هونكه أيضًا: "حتى السلاجقة والأتراك والمماليك والتتار عندما وصلوا إلى الحكم ظلّوا بقلوبهم رعايا مخلصين للثقافة العربية ولغتها، بل لأساليب الحياة العربية وفكرها. حقًا (والكلام ما زال للمستشرقة هونكه) إنّ قدرة هذه العقلية العربية على طبع الشعوب لرائعة"[41].

أعرف أنّ وضع العرب اليوم هو مختلف جدًا ومؤسف لأسباب كثيرة ذاتية وخارجية، منها طبيعة معظم حكوماتهم التابعة لأعدائهم العاملين على تعطيل مشروعهم الوطني والقومي النهضوي، ومنه تهجير أدمغتهم ورؤوس أموالهم وتعطيل مهام البحث العلمي

---

[38]- راجع:

Hunke, S: Allahs Sonne uber dem Abendland Unser ArabischesErbe,3.Auflage, Germany, 2002.

ترجمة بيضون، فاروق؛ و الدسوقي، كمال: بعنوان "شمس العرب تسطع على الغرب"، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993، ص: 482–483.

[39]- المصدر نفسه: ص: 481–483.

[40]- المصدر نفسه: ص: 484.

[41]- المصدر نفسه: ص: 368.

الجدّي لديهم، وضرب وحدة نسيجهم المجتمعي، وجميعنا نتألم لذلك، ولكن هذا لا يجوز أن يدفعنا أبدًا إلى نكران حقائق الأمس المشرفة بالنسبة إلينا، أو بالنسبة إلى غيرنا. علينا ألَّا نقع في هاوية أي تعصب يوصلنا إلى عطالة العقل التي تدفعنا إلى براثن النظرة الذاتوية[42] القمعية التي هي عنصر محرك خطير لفرض العلاقة العدوانية بين عنصريْ كلّ مجتمع، أي عنصر الأنا وعنصر الآخر[43]. وخاتمة البحث هي وقفة معهما ومع هذه النظرة والضرورة في إعادة إعمار العقل.

رابعًا– الخاتمة في الأنا والآخر والنظرة الذاتوية وضرورة إعادة إعمار العقل:

إن كلًا من "الآخر" و"الأنا" قد يكون فردًا في أسرة أو حيّ أو تجمّع ما، وقد يكون فئة مهنية أو دينية أو سياسية أو مذهبية، وقد يكون دولة أو مؤسسة عامة أو خاصة أو غيرها في المجالات كلّها، في الوطن أو الأمة أو الإقليم أو العالم. وإن لطبيعة علاقتهما معًا في مختلف أشكالهما هذه، الفردية والتجمعية، منعكساتها الخطيرة على الواقع الوطني والعربي عمومًا.

في الدراسات العربية المتعلقة بإخفاق كثير من مشاريع النهضة، ومن محاولات الوحدة في الوطن العربي في تاريخه الحديث والمعاصر، نلاحظ التركيز على دَوْر القوى الخارجية والداخلية العميلة لها، التي هي وراء عملية التخريب المتعمد المدروس في مختلف الميادين الحياتية في معظم بلداننا العربية. ونحن إذ نؤكد هذا الدور نرى عدم إهمال العامل الذاتي أيضًا، الذي تشكل النظرة الذاتوية القمعية السائدة في النظام المعرفي–القيمي المتخلف للكثيرين، ولاسيَّما التكفيريين، أحد أهم عناصر فعله. إنّ هذه النظرة هي التي تفسّر فظائع منظمات التكفير في سوريا اليوم، وفي كلّ مكان.

"النظرة المعيارية الذاتوية الخطيرة هذه، وما تتضمنه من قمع لـ "الآخر" قد يصل حدّ الإلغاء، والمقصود "الآخر" الوطني بالطبع، كما هي عائق أمام فعل التفاهم والتعاون والتنسيق والتخطيط، الذي لا يمكن أن يتم دونه، فهي حاجز أمام فعل إعمار وإعادة إعمار كثير من معطيات التنمية والحوار والديمقراطية والوحدة والتحرير، بل هي سدّ في

---

[42]– إدخال الواو على أي مسمى أو مصطلح يعني أنه لا يستخدم كتوصيف لفعله أو فاعله وإنما كتوصيف لتجاوزهما المغلوط فيه لمضمونهما الحقيقي الصحيح، كما هي الحال مع مصطلح "الذاتوية" المختلف تمامًا عن مصطلح "الذاتية"، من حيث هو تجاوز لحدودها سلبًا في تعاملها مع الآخر متجاهلة كيانه وحقوقه.

[43]– راجع بحثنا: "القمع والآخر والعقل العربي، مجلة الوحدة، الرباط، العدد 80/79، 1991، ص: 154–168.

وجه الحياة السعيدة الحقيقية التي لا يمكن أن توجد وفي أعماقنا هذه النظرة الدونية القمعية إلى "الآخر"، قد يجمعنا به من أعمق صلات القرابة أو الجوار أو المهنة أو الرابطة الوطنية أو القومية أو الإنسانية.

إن كل نظرة دونية لأي إنسان، وكل تعصب قبلي أو عائلي أو ديني أو قومي أو طائفي أو مذهبي أو سياسي، وكل تزوير وتضليل في الميادين الحياتية كلّها، وكل نقد تجريحي غير موضوعي، وكل رفض للحوار والتعاون والتنسيق والتوحيد، وكل استهتار بالأخلاق والحريات والقوانين، الخادمة للإنسان والمجتمع، ما هي إلا بعض مظاهر ومعطيات قمع "الآخر" الذي يرتبط بعلاقة جدلية مع النظرة المعيارية الذاتوية لفاعله، النظرة التي تنطلق من منظومة معاييره الجامدة التي جعل منها مرجعه ومرتكزه في تعامله مع "الآخر" الوطني، ومع محيطه عمومًا.

وهذه العلاقة بين النظرة المعيارية الذاتوية والقمع تحتم أن كلًا منهما يقود إلى الآخر، ويرسخ جذوره في البنية العقلية لصاحبهما إلى أن يتقوقع داخل نفسه تمامًا رافضًا حق "الآخر" كليًا في حرية التفكير والقول والسلوك والعمل"[44]، إنّه مرض التعصب القاتل للأنا والآخر معًا، الذي يُعْمل على تعميمه من خلال الإصرار بقوة على تعميم مضامين الثقافة المتخلفة في صفوف العرب. وتساعد في هذا التعميم معظم المؤسسات العربية، السياسية والحقوقية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، لأنّها ما تزال في ظل هيمنة قوى اليمين والرجعية الخارجية والعربية والداخلية. وإن من جملة أخطر ما تلجأ إليه هذه القوى هو استغلال هيمنتها هذه في توظيف التراث القومي، الذي هو مكوّن أساسي في النظام المعرفي –القيمي للعقل العربي، لصالح إبراز الموروثات التي من شأنها ترسيخ وجودها المسيطر في المجتمع العربي، فنراها تُبْرز جميع الموروثات جميعها التي تخدم في تعميق أشكال ومضامين التخلف والتفرقة والتجزئة والاستسلام القدري والاتكالي كلّها.

ونظرًا إلى أهمية تأْثير الدين عند جماهيرنا فإنها تستغل موروثاته، ولاسيَّما الإسلامية، فتحوّلها، على سبيل المثال، من موروثات حضارة الوحدة والتعاون والثورة والعقلانية والتحرر والقوة والنظام العالمي الحضاري الذي عمّ العالم كلّه في العصور الوسطى، إلى موروثات تخلف التفرقة والتمذهب والتعصب والفردية والجبرية والاستسلامية والعبودية والتبعية والضعف. والحال نفسها بالنسبة إلى الموروثات الأخرى

[44]– انظر بحثنا: "القمع والآخر والعقل العربي"...: ص: 167–168.

كلّها لتراثنا العربي. ونرى أن نؤكد هنا أنّ العلّة ليست في موروثات الإسلام أو التراث العربي القومي عامة، كما يعتقد جهلًا أو عمدًا بعضهم، والتاريخ يشهد، وإنما هي في القوة الرجعية التي تحورها وتشوهها وتزيفها لخدمتها وخدمة سادتها في صفوف الإمبريالية والصهيونية، الذين يوحدون وينظمون جهودهم معها بهذا الخصوص وبغيره، مما من شأنه ضرب أيّة معطيات لتنفيذ مشروع عربي نهضوي حقيقي قد يهدد استمرار مصالحهم ووجودهم في الوطن العربي، خاصة في فلسطين المحتلة.

وفي المواجهة، خاصة في سوريا، توجد قوى التقدم والنهضة تعمّر وتعيد الإعمار لكثير من الأمور الجوهرية، وتناضل لتفضح الممارسات المذكورة، ولتنشر بالمقابل أيديولوجيتها وثقافتها القومية العربية العقلانية التوحيدية الحضارية التي من شأنها بناء الإنسان العربي المستقبلي المنشود، ولتبرز المضامين والحوامل التاريخية العروبية الحضارية لتراثنا القومي المشهود تاريخيًا كأصل للإنسان والحضارة منذ آلاف السنين. واليوم قوى التقدم والنهضة في سوريا هي التي تسند بقوة عملية إعادة الإعمار في كلّ مجال، ولاسيَّما في مجال إغناء المكونات الثقافية الحضارية للعقل العربي.

علينا أن نفهم أنّ هذه العملية هي مصيرية. ندرك هذا إذا وعيْنا أن لا إعمار ولا إعادة إعمار، لا وحدة ولا تنمية ولا حضارة ولا ديموقراطية، ولا قومية ولا إنسانية، لا إيمان ولا دين ولا علم ولا فن الخ... دون تعاضد الأنا و"الآخر"، ولنتذكر أيضًا أن لا حرية ولا سعادة ولا معرفة ولا سلام لـ "الأنا" دون "الآخر" أو العكس. وإننا قد نختلف في أية مسألة، ولكن يجب أن يبقى الحكم بيننا للعقل الفاعل فينا، العقل الموضوعي النقدي العلمي والوطني. علينا إعادة إعمار عقلنا بشحنه بمعطيات حضارة الموضوعية بعيدًا عن أيّ تعصّب، ومرةً ثانيةً صدق الرسول الكريم محمد صلى اللهُ عليه وسلم: "ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية". لنحبّ الحماسة ولنرفض التعصّب والعصبية، ولنتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بالإعمار الجميل النافع للأرض والإنسان، فلهذا خلقنا، وسوريا الغالية تستحقّ منّا الكثير.

المصادر والمراجع :

أولًا– المصادر الدينية:

1– القرآن الكريم.
2– الحديث النبوي.
3– الكتاب المقدس.

ثانيًا– المصادر والمراجع العربية:

1– أبحاث ونتائج المؤتمر الذي أقامته الهيئة العليا للبحث العلمي على مدرج جامعة دمشق، بعنوان "دور المؤسسات العلمية والبحثية في إعادة الإعمار"، في 2014/11/24.
2– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي، بيروت، دون تاريخ.
3– الأسد، بشار: حديثه إلى قناة "تي بي أس" اليابانية الذي نشرته وكالة "سانا" الرسمية السورية للأنباء في 20 كانون الثاني، 2017.
4– أوجين منّا، يعقوب: قاموس كلداني–عربي، أعاد طبعه مع ملحق جديد روفائيل بيداويد، منشورات مركز بابل، بيروت، 1975.
5– البني، عدنان: أبولودور الدمشقي أعظم معمار في التاريخ القديم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1990.
6– التيزيني، طيب: من التراث إلى الثورة، ط3، دار دمشق، 1979.
7– الحلقي، وائل: كلمة السيّد رئيس مجلس الوزراء التي ألقاها في المؤتمر الذي أقامته الهيئة العليا للبحث العلمي بعنوان "دور المؤسسات العلمية والبحثية في إعادة الإعمار"، بتاريخ 2014/11/24.
8– خميس، عماد: كلمة السيّد رئيس مجلس الوزراء التي نشرتها وكالة سانا في 2017/1/19.
9– عيواص، زكا: "بطريرك السريان الأرثوذكس المعروف": دراسة "الإسلام والمسيحية: تكامل تاريخي في بناء الحضارة العربية، جريدة النهار، بيروت، 2005/7/12
10– قواميس اللغة العربية ومنها قاموس محيط المحيط، ومعجم "المعاني الجامع".

11- مجموعة باحثين: موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة: توفيق إبراهيم سلوم، ط3، دار الجماهير الشعبية دمشق، 1980.

12- محمد، نجاح: القمع والآخر والعقل العربي، مجلة الوحدة، الرباط، العدد (80/79)، 1991.

13- مواقع إلكترونية معنية بمنظمة "بصمة شباب سوريا".

ثالثًا- المراجع الأجنبية والمترجمة:

1- Bandinelli, B. R: Rome, le centre de jouvoir, Paris, 1969.

2- Hunke, S: Allahs Sonne uber dem Abendland Unser Arabisches Erbe,3.Auflage, Germany, 2002.

ترجمة بيضون، فاروق؛ و الدسوقي، كمال: بعنوان "شمس العرب تسطع على الغرب"، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993، ص: 482-483.

3- Pierre, R: La cité d'Isis histoire vraie des Arabes, Paris, 1976.

ترجمه: جحا، فريد: ط3، دار البشائر، دمشق، 1996